المثال النحوي العربي فلسفته وأبعاده التربوية قديما وحديثا

The Arabic grammatical example, its philosophy and educational dimensions, ancient and modern

عبد الله باوني[1]

[1] جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي – تبسة (الجزائر)، abdallah.baouni@univ-tebessa.dz

تاريخ الاستلام: 2023/9/15 تاريخ القبول: 2023/12/25 تاريخ النشر: 2024/3/31

ملخص: حظي موضوع تيسير النحو العربي بعناية كبيرة من اللغويين العرب القدامى والمعاصرين، وألفت فيه العديد من المؤلفات والأبحاث، ومن جانبه يهتم هذا العمل البحثي بالتركيز على أحد الظواهر المهمة المرتبطة بهذا الموضوع والتي يقدر أنها لم تلق العناية المناسبة من الدارسين رغم أهميتها وكونها أحد المفاتيح الهادفة المغفول عنها، ألا وهي ظاهرة المثال النحوي.

إن أي دراسة تتناول هذا الجانب الهام وتأمل تحقيق نتائج مقبولة فيه يجب ألا تغفل أمرين هامين، وهما: أن النحو العربي صنيعة قرآنية وجوداً ونشأة وتطوراً، والأخرى أن المثال النحوي (قرآنيا أو بشريا) دأب على أن يتخذ من المعرفة القرآنية وفلسفتها أساسا يقوم عليه، ليكون الطريق الأنسب لتحقيق الأهداف التعليمية والفوائد التربوية الممكن تحصيلها اتباعاً لهذا المنهج في تيسير النحو العربي.

الكلمات المفتاحية: النحو العربي؛ المثال النحوي؛ الأهداف التربوية والتعليمية.

Abstract : The subject of facilitating Arabic grammar has received great attention from ancient and contemporary Arab linguists, and many books and research have been written about it. For its part, this research work is concerned with focusing on one of the important phenomena related to this subject, which it is estimated has not received appropriate attention from scholars despite its importance and being one of the overlooked purposeful keys. About it, namely the phenomenon of grammatical example.

Any study that deals with this important aspect and hopes to achieve acceptable results in it must not neglect two important matters, namely: that Arabic grammar is a Qur'anic creation in existence, origin and development, and the other is that the grammatical example (Qur'anic or human) has always taken Qur'anic knowledge and its philosophy as a basis upon which it is based. To be the most appropriate way to achieve the educational goals and educational benefits that can be gained by following this approach in facilitating Arabic grammar..

Keywords : Arabic grammar; grammatical example; Educational and learning objectives

المؤلف المرسل: عبد الله باوني.

1. مقدمة:

ينصب اهتمام كثير من مدرسي قواعد اللغة العربية حين تدريس مواضيعها للمتعلمين في المراحل الدراسية المختلفة على القوانين النحوية التي تمكنهم من الأداء اللغوي السليم، والتي تدور في فلك أمثلة نحوية تساعد على تحقيق المرجو منها إذا نأت عن التفريعات الشاذة والخلافية المشوشة للذهن، وارتبطت بمستويات حياة المتعلم المختلفة، قريبة من واقعه دون أن تفصله عن مضامينه الفكرية والحضارية والعلمية والقيمية.

المثال النحوي تركيب مصنوع يختاره النحاة مثالا لقاعدة نحوية وتطبيقا عليها، اختياراً قصديا غالبا في جانبه غير النحوي، لأنه يحمل في طياته فكرة كالحث على طلب العلم كما في (العلم نور)، أو الدعوة إلى مكارم الأخلاق كقولهم (حاتم الطائي أجود العرب) وغيرها من الرسائل. لذا نشأ ارتباط وثيق بين المثال النحوي ودلالته غير النحوية، بل أصبح عند البعض إشارة ورسالة لازمتين لأنه يوثق من جانب آخر لدلالة تاريخية أو اجتماعية أو تربوية للمثال في عصر معين، فالدلالة التاريخية للمثال (جاءت سيارة) في زمن غابر غير (جاءت سيارة) في زماننا مثلا، لأن (السيارة) بالمفهوم القديم تعني مجموعة من الناس السائرين في طريق ما، أما (السيارة) في عصرنا فهي وسيلة صناعية للتنقل من مكان إلى آخر، أما الدلالة التربوية للمثال النحوي فلارتباطه غالبا بمجموعة من القيم التربوية المتحدة بمعناه كالحديث عن الكرم والوفاء والمساعدة وغيرها من السلوكات الحميدة التي لا تتطفل على المثال النحوي، ولكنها تفرض نفسها عليه فرضا، وكذا الدلالة الاجتماعية للمثال وغيرها.

والحد الفاصل بين الدلالة النحوية للمثال والبعد غير النحوي له وبيان فلسفة عمله القائمة على المزج بينما هو ديني وما هو لغوي وتحقيق الأهداف الخاصة بكل واحد منهما هو محاولة توضيح هذه الدراسة، فقد كان منذ القديم محل خلاف بين البصريين والكوفيين، وهو اليوم يعيد تكرار نفسه بين النحاة المعاصرين في جدلية عزل الجملة عن أبعادها غير النحوية والاحتكام إلى المعايير الثابتة المجردة أو السماح لها بالنظر إلى المعنى والسياق الاجتماعي لتحليل الظاهرة اللغوية نحويا، ومدى انعكاس ذلك على منهجية تدريس النحو وتيسيره للمتعلمين في مراحل التعليم.

2. النحو العربي صناعة قرآنية:

كان اختلاط العرب بغيرهم قبل الإسلام قليلا، وانحصر في تجارتهم صيفا وشتاء نحو الشام واليمن، أو مجاورتهم للفرس والروم، ولم يكن لذلك تأثير بهذا الاختلاط لقلة الألفاظ المستعملة مع هؤلاء.

فلم تُصب لغتهم بداء اللحن إلا قليلا، ولم يكن هناك داع لوضع حَدٍّ له، لأنه لا يمثل خطورة على لغتهم يدل على ذلك ما نلمحه من بلاغة التعبير عند المتكلمين الجاهلين (السامرائي، 2007، صفحة 15) و (الياسري، 2003، صفحة 49).

ولما انتشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها خاف المسلمون على القرآن أن يتسرب إليه اللحن فأوجدوا النحو، وحملهم ذلك على مشافهة الأعراب والأخذ عنهم، حتى وصلوا إلى وضع قواعد الرفع والنصب والجر والجزم.

يقول ابن خلدون (ت808هـ): "لما فسدت اللغة بما ألقي إليها مما يغايرها وخشي أهل العلوم أن تفسد تلك الملكة رأسا، ويطول العهد بها، وينغلق القرآن والحديث على الفهوم، استنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة، شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشياء بالأشياء، مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب" (ابن خلدون، 2000، صفحة 442) و (أبو المكارم، 2007، صفحة 87).

فبرزت طائفة من العلماء نذروا أنفسهم للبحث وخدمة القرآن الكريم وتيسير قراءته وفهمه تحقيقا، وهذا العمل الجليل ولأجل قيامهم بهذه المهمة العظيمة تتبعوا "الأعراب في الصحاري والقفار، ولم يتركوا شاردة ولا واردة إلا سجلوها، وأحاطوا أنفسهم بسياج من التحرز حتى لا يفتروا على الله الكذب وحتى لا يتقولوا على كتاب الله" (تواتي، 2008، صفحة 93).

وإذا كان الفقيه هو الواسطة بين النص الصادر عن الشارع والمتلقي المنفذ، فإن للنحوي نفس الدور الوسطي بين النص العربي المأخوذ عن الأعراب الفصحاء والمتكلم الجديد الراغب في الحذو على منوالهم، وهكذا اعتمد النحاة على الاستنباط لاستخراج القوانين اللغوية التي تنظم الكلام العربي قبل أن يتم تنزيله على الواقع الاستعمالي لكل متعلم لهذا اللسان، لذا يعرف ابن جني النحو بأنه: "انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه

من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة، كما أن الفقه هو في الأصل مصدر فقهت بمعنى فهمت ثم خص به علم الشريعة" (ابن جني، 2006، صفحة 34/1).

تمثل اللغة العربية وعاء الثقافة الإسلامية، وطريق معرفة مبادئ الدين الإسلامي وفهم أحكامه، وهي اللغة الوحيدة في العالم "التي ترتبط بالدين ارتباطا لا انفصام له، فاللغة العربية لغة الإسلام، لأنها لغة القرآن الكريم" (هيئة التحرير، 2005، صفحة 308).

فهي صنع القرآن وجوداً وإحياء، ولها به ارتباط وعلاقة تظهر بقوة في ارتباطها بالقرآن الكريم، إذ بها نزل فوحد لهجاتها ورفع قيمتها بين الأمم، وأقبل عليها من ليس من أبنائها تعلما وخدمة كسيبويه والأخفش والكسائي والقراء وابن جني وغيرهم، ولا عجب أن يكون القرآن مدركا من مدارك النحو واللغة عليه كل الاعتماد من حيث لفظه وأسلوبه، وهذا ما يفسر لنا اعتماد النحاة واللغويين والبلاغيين اعتماداً مطلقاً على القرآن في تثبيت قواعدهم وبنائها، فأهم ميزة للغة العربية "شرفها بنزول القرآن الكريم فيها حتى أصبحت لغة الوحي ولغة اتصال الأرض بالسماء، ولقد حفظ العرب والمسلمون قرآنهم فحفظ لهم لغتهم" (الحاج صالح، 2008، صفحة 22).

والظاهر أن اللغة العربية لم تكن بالنسبة لهؤلاء العلماء مثل غيرها من اللغات، فقد أصبح لها "مكانة خاصة في قلوب المتكلمين بها وعقول الدارسين لها منذ أن نزل القرآن الكريم ناطقا بها، ... فحدث –إذن– أن أثر القرآن الكريم فيها وأعطاها ما لم تأخذه من العرب، فلقد عمل إحداث مرونة في تعابيرها، وعلى تطور ألفاظها، وتوسع دلالتها، وظهور مصطلحات جديدة، أي أنه الباعث على حركة لغوية في الجزيرة العربية التي كانت هامدة" (بلعيد، 2005، صفحة 68).

فالقرآن الكريم هو السبب الوحيد في نشأة النحو العربي وتدوينه، ومن أجل أن يبقى كلام الله مصونا من كل تحريف محفوظا من كل عبث دعت الحاجة إلى علم يعرف به خطأ الكلام من صوابه، ليحافظ على بناء العربية لتمتد إلى الأجيال (مكرم، 2001، صفحة 68).

وبديهي إذن أن تكون الحقيقة التي لا جدال فيها أن نشأة علم النحو كان هدفه وغايته خدمة القرآن الكريم وصونه من أن يطاله لحن عند الغيورين الذين يحدوهم في ذلك أسباب عديدة منها: "حاجة الشعوب الأجنبية إلى دخول الإسلام وإلى تعلم لغة القرآن الكريم، وشيوع اللحن على ألسنة الموالي وعلى ألسنة العرب لاختلاطهم بغيرهم من الشعوب مما أضعف السليقة العربية" (علامة، 1992، صفحة 19).

واشتهر البصريون ثم الكوفيون في جمع اللغة، ولم تكن جميع القبائل عندهم مصدراً لهذا الجمع، فالذين "نقلت عنهم العربية وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ معظمه، وعليه اتكل في الغريب، وفي الإعراب، وفي التصريف، ثم هذيل، وبعض كتانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم (مكرم، 2001، صفحة 174) و (تمام، 2000، صفحة 29).

وإذا عدنا إلى كتب النحو والوفيات والتراجم والطبقات فإننا نعثر على روايات متعددة تحدثنا عن بدايات علم النحو، ونستخلص منها أسباب دعت إلى ظهور النحو علما مستقلا بذاته، واضحا بمصطلحاته وحدوده بعد أن كانت ممارسته تتم سليقة وصور مظاهر اللحن التي يمكن الرجوع إليها في مصادرها والتي تشير كلها إلى الدور الهام للقرآن الكريم في الحض على وضع النحو علما بعد ممارسته سليقة، وبعد أن امتد هذا اللحن إلى آيات القرآن الكريم نفسه.

وهذا الارتباط الحاصل بين القرآن الكريم ووضع النحو العربي لم يختص بمرحلة معينة بل امتد على مدار العصور الإسلامية كلها، "وجرت مناهج التعليم منذ أقدم العصور الإسلامية على المزج بين المعارف الدينية واللغوية في الكتاتيب والمساجد والمجتمعات، ثم في المدارس المنظمة فيما بعد، ومن ثم كان اللغوي غالبا رجل دين، ولا ترى عالما من علماء اللغة القدامى إلا كان مقرئا أو مفسراً أو محدثاً أو فقيهاً (رمضان، 1999، صفحة 168).

فقد بدأت الدراسات اللغوية والنحوية مختلطة، لأن الفصل بين الدراستين لم تتهيأ له أذهان العلماء في هذا العصر، فالدرس اللغوي العربي نشأ نشأة متكاملة لا متجزأة، ومتجذرة لا متفرعة، ومن الصعوبة أن نرسم حدودا "واضحة المعالم بين نحوي ولغوي

قبل نهاية القرن الثاني الهجري على الأقل، جماعة أبي الأسود اشتغلت بعلم العربية كليا، وخلفهم خلف سار على نجدهم بدءاً من عبد الله بن إسحاق الحضرمي وعيسى، وأبي عمرو، فالخليل إلى سيبويه، والأخفش الأكبر..." (مرتاض، 2009، صفحة 166).

لفت نظر أبي الأسود الدؤلي أثناء ضبطه للنص القرآني الاختلاف في الحركات أواخر الكلمات، فصنفها إلى مضمومات ومفتوحات ومكسورات منونة وغير منونة، وهكذا أدرك أبو الأسود "ظواهر التصرف الإعرابي، وإن لم يستخدم بالضرورة المصطلحات التي وضعت له من بعد، وكان هذا الإدراك نقطة البدء في التفكير في ظواهر اللغة... بعد فترة طويلة من المعاناة في استكشاف ظواهر اللغة وتحديدها والتردد في تصنيفها وتشكيلها وضع قواعد النحو، تلك القواعد التي أتيح لها أن تنمو، وتتطور، وتنضج، وتستقر حتى يصيبها الاستقرار بما يصيب كافة الظواهر من تجمد واحتراز"، ومن ثم يمكن تقسيم هذه المرحلة إلى الفترات الخمس الآتية، التي تصور في مجموعها تاريخ النحو العربي كله: النشأة والنمو، طور التطور، طور النضج، طور التجمد، طور التحرك. (أبو المكارم، 2007، صفحة 92).

بدأ النحو بداية بسيطة كبداية كل الأمور العظيمة، فكان أقرب إلى الجانب العلمي التطبيقي منه إلى الجانب الفكري النظري، حتى أن العمل العظيم الذي كان له الأثر البالغ فيما بعد على الدرس النحوي للدؤلي والمتمثل في نقط الإعراب، هناك من نظر إليه من الدارسين المعاصرين على أنه لا يمكن عدّهُ من قبيل الدراسات النحوية مثل الدكتور تمام حسان رغم إقراره بالأهمية البالغة لذلك في تاريخ النحو العربي.

وأبو الأسود وزملاؤه كانوا من ذوي السليقة، فلا يؤثر عنهم أنهم بنوا عملا على مشافهة الأعراب أو الرحلة إلى الصحراء، وكانت تلك السليقة هي المعول الوحيد الذي اعتمده العلماء، وعلى رأسهم أبي الأسود في سبيل إرساء مبادئ علم النحو (ضيف، 1983، الصفحات 17-18) و (مكرم، 1993، صفحة 20).

وهذا الجيل مثلت جهودهم إرهاصا لنشأة النحو العلمي أو النظري ولم يكن منشئا له، وإنما كانت على يدي عبد الله بن إسحاق الحضرمي، وقد كان قارئا أيضا، ولكن "يبدو أن مجتمع البصرة على عهده كان أكثر نضجا مما كان عليه في عهد أبي الأسود، بمعنى أن البصرة أظلت مجتمعا متعددة الأعراق، منفتحا على كل

الثقافات... فبعج النحو ومدّ القياس وشرح العلل" (تمام، 2006، صفحة 108) و (الخالدي، 2007، الصفحات 32-33).

ليشهد القرن الأول ميلاد النحو العلمي، ويبدأ "النحو يحدد لنفسه منهجا ويجرد أصولا ويجند جنوداً متخصصين يفرقون بين طابع عملهم النحوي وطابع عمل اللغويين" (تمام، 2000، صفحة 33).

3. المثال النحوي العربي والفلسفة القرآنية:

ارتبط النحو العربي بالدين الإسلامي ارتباطا وثيقا منذ نشأته الأولى، فصار تعلمه وإدراك مقاصده واجبا دينيا، وغاية منشودة للمسلم الذي يتوخى القراءة الصحيحة الفاهمة للقرآن الكريم.

وظل هذا الارتباط وثيقا في العصور المتأخرة، حيث عمد مؤلفو الكتب النحوية في صناعتهم للأمثلة النحوية في تعزيز التوجهات الدينية القيمية في مجال العبادات والمعاملات والأخلاق العامة إيمانا منهم بتكاملية العلاقة بين القاعدة والمثال النحوي، وأن مثل هذه الأمثلة تحديدا هي أقرب وأيسر الطرق للعبور السلس للقاعدة، فكان الحضور مكثفا في مجال العبادات مثل موضوع الصلاة، تلقى الأمثلة النحوية الموظفة لها منتشرة في كثير من كتب النحاة المعاصرين، مذكرة بفرضها على كل مسلم كما في المثال (الصلاة فرض على كل مسلم ومسلمة) (علي، 2000، صفحة 77). والحث على المواظبة عليها جماعة في المسجد نحو المثال (المحافظة على صلاة الجماعة تعظم أجر صاحبها) (أمين، 2002، صفحة 03).

فالمعلم المستوعب لأبعاد المنهج المتحدث عنه سابقا، وبالتوازي مع متطلبات المرحلة التعليمية الحالية المقاربة بالكفاءات (النصيّة) يمكنه توظيف المثالين السابقين إما في صلب الدرس النحوي أو على الأقل في التطبيقات المباشرة أو الختامية المتعلقة، مثلا بموضوع المبتدأ أو المضاف إليه أو المعطوف والمعطوف عليه باعتبارهما أنموذجان صالحان لذلك، ويحققان لنا فلسفة المنهج التعليمي للنحو العربي المازجة للبعدين الديني والمعرفي العلمي بأسلوب محبب وقريب من نفوس المتعلمين، وتحقق في الآن نفسه ترسيخ تلك القيم والتعلمات في آن واحد، وتعمل على عدم مقاومة نسيانها.

ولا يعدم قارئ أمثلة الكتب النحوية المعاصرة تذكيراً بالجهاد في سبيل الله نحو (المجاهدون منصورون) (علي، 2000، صفحة 76). موظفا هذا المثال النحوي، مثلا في درس جمع المذكر السالم بما يحقق لنا من فلسفة المزج بين تحبيب وغرس الصفات الفاضلة في نفوس المتعلمين وربط ذلك بما يحصلونه من تعليم، ولا أدل على ذلك مما قام به المستشارون التربويون الغربيون من فرض قيود على مثل هاته الأمثلة وحذفها في أكثر المناهج التربوية التعليمية العربية في العقود الأخيرة، وكل ما يلي من الأمثلة والشواهد النحوية تندرج في هذا السياق.

وفي إبراز البعد الأخلاقي والتربوي للصيام تبدو الأمثلة كثيرة، مثل (يستحب أن تصوم يومي الاثنين والخميس) (أمين، 2002، صفحة 204).

وتزخر كتب النحو على أمثلة نحو تحث على البر بالوالدين وحسن معاملتهما، كما في المثال (كيفما تعامل آباءك يعاملك بنوك) (أمين، 2002، صفحة 62).

وتقوم العلاقة بين عموم المسلمين على الأخوة في الإسلام نحو (المسلم أخو المسلم) (علي، 2000، صفحة 76).

وتدعوا الأمثلة النحوية المعاصرة إلى إيفاء العهود نحو (أوفوا بالعهد) (الجارم و مصطفى، 1983، صفحة 02).

وإلى رعاية مال اليتيم مثل (يا آكلا مال اليتيم كيف تنعم؟) (أمين، 2002، صفحة 503).

وإلى معاملة الخدم بإحسان نحو (ساء في ضربك الخادم) (أمين، 2002، صفحة 632).

أما على المستوى الشخصي فتدعوا الأمثلة النحوية إلى التحلي بمكارم الأخلاق، كغض البصر نحو (غض البصر يجدي في الدنيا والآخرة) (أمين، 2002، صفحة 645).

والقناعة نحو (قليل يكفي خير من كثير يطغي) (أمين، 2002، صفحة 228).

واستثمار الوقت نحو (لا تضيعين وقتك) (قاسم، 2002، صفحة 03).

والتفكير في الآخرة مثل (يا لاهيا عن الآخرة عُد إلى ربك ومولاك) (أمين، 2002، صفحة 503).

وترغيب المسؤولين وأولي الأمر بالعدل والحكمة وترهيبهم من الظلم نحو (لا تظلم فالظلم بلاء على صاحبه) (أمين، 2002، صفحة 508). و(نعم فتفقد أحوال المسلمين) (أمين، 2002، صفحة 689).

وانتقاد التصرفات السلبية لبعض الأفراد في المجتمع المسلم نحو (إن الحارس نائم) (الحجازي، 2001، صفحة 17).

و(يداي نظيفتان رغم الإغراءات) (الحجازي، 2001، صفحة 147).

4. الشاهد والمثال النحويين:

الشاهد النحوي دليل نصي من القرآن الكريم أو كلام العرب المحتج به شعراً ونثراً يمتحن صواب التقنين النحوي، ويستدل به على إطراد القوانين النحوية، ويحتكم إليه في مسائل الخلاف النحوي (نعجة، 2014، صفحة 257).

أما المثال النحوي المصنوع فهو تمثيل مفتعل تطبيقا لقاعدة نحوية ما غير خاضع لحتمية زمانية أو مكانية، فقد تحتضنه عصور الاحتجاج أو يتجاوزها دالا أو مدلولا، فيكون أكثر حميمية وروح العصر الذي قبل فيه.

ففي التمثيل على تقدم المستثنى على المستثنى فيه يمكن القول (مالي إلا القرآن كتابً)، أو (ما عرفت إلا أخي صديقاً)، أو (لم أستطب إلا الكنافة حلوى)، أو (ما ناقشت إلا العولمة قضية) وغيرها، وهذه كلها أمثلة نحوية تعليمية مصنوعة معاصرة تخدم القاعدة النحوية وتنسجم مع واقع المتلقي دالا ومدلولا، وتغني عن التكرار الممل للشاهد الشعري من مثل (للنابغة الذبياني): (بديع، 1996، صفحة 272)

فمالي إلا آل أحمد شيعة وما لي إلا مذهب الحق مذهب

ولكنها تؤثر سلبا في المستوى المعرفي والعلمي والتكويني لشخصية المتعلم حسب ما عايناه في مراحل التعليم المختلفة، فالمثال النحوي المصنوع في الدرس النحوي الحديث منهج يتوسل لتسيير النحو العربي وتقريبه من مريديه من أبناء العربية، ذلك أن الغالب عليه أنه "مرآة شعب في مناحيه المختلفة، وهو في الأحوال كلها ليس دعوة إلى إعدام الشاهد النحوي، أو الوقوف عند حد إجلاله وتقديره بوصفه تراثا لغويا وحسب، يتفاخر به في المناسبات القومية شأنه في هذا شأن الملابس وبعض الأشغال اليدوية والأغاني الشعبية، وإنما دعوة إلى تمثله في السياق التعليمي

التربوي المناسب حتى لا يكون حجرة عثرة في تعلم الناشئة النحو، وتمثله تمثلا سليما في الأداء اللغوي نطقا وكتابة" (نعجة، 2014، صفحة 258).

إن للطبيعة البشرية ميلا فطريا للتمثيل على الذهني المجرد والمدرك الحسي الناجز، فهو آنس للنفس، وأوكد لها وأثبت، والقرآن الكريم شاهد على هذا الميل، فقد خاطب الله عز وجل الإنسان مرارا بضرب الأمثال، توضيحا وبيانا، وعظة واعتباراً، قال تعالى: {انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا} [الإسراء: 48]، وقوله تعالى: {كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} [الرعد: 17]، وقوله تعالى: {وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النور: 35]، وقوله: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ} [يس: 13].

والحديث النبوي الشريف شاهد أيضا على هذا الميل، إذ توسل رسول الله صلى الله عليه وسلم غير وسيلة تعليمية توضيحية تربوية في إرشاد المسلمين إلى أمور دينهم حتى لا تبقى نظرية مجردة، كتعليمهم الوضوء والصلاة والحج وغيرها بالتطبيق العملي.

وكتب القدماء في شتى العلوم والمعارف تزدوج فيها الرؤية بين النظرية والتطبيق، وعلم النحو من أحوج العلوم العقلية إلى التمثيل عليها، فمنطلقاته الرياضية أو الفلسفية أو الفقهية عصية غالبا على الناشئة، ويضحي التمثيل عليها خطوة أول مهمة في تقريبه إلى الأذهان، وبلوغه حد الإفهام ولاسيما إذا كان مثالا حياً مصنوعاً.

وكتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفتيش، والمراد بذلك أن سيبويه وإن تكلم في النحو، فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب، وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ونحو ذلك، بل هو يبين في كل باب ما يليق به، حتى إنه احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني،.. ولا يقال إن الأصوليين قد نفوا هذه المبالغة في فهم العربية، فقالوا: ليس على الأصولي أن يبلغ مبلغ الخليل وسيبويه وأبي عبيدة والأصمعي، الباحثين عن دقائق الإعراب ومشكلات اللغة، وإنما يكفيه أن يحصل منها ما تيسر به معرفة ما يتعلق بالأحكام بالكتاب والسنة (الشاطبي، 1997، صفحة 53).

وعلق الدكتور عبد الجليل مرتاض على هذا الرأي بقوله: "وهذا ما لا يكاد يدركه إلا قليل من الباحثين المتسرعين في بعض أحكامهم.. أي سيوبه... هو ليس مجرد جامع

للسان العربي كما قد يوهم كثير منا أو قليل، بل هو مهندس لهذا اللسان جمعاً وحصراً وتقييسا.. ولم تفته بنية عربية واحدة... بل يمكن القول إن سبق الأولين والآخرين إلى ما عاد قبل فترة يسمى لدى الغربيين ومن تبعهم من اللسانيين العرب المحدثين بـ"اللسانيات الافتراضية"... ولم أقف فيما تيسر لي الوقوف عليه – أن اللسانيين العرب المحدثين انتبهوا إلى هذه الطريقة الديداكتيكية السيبوية وعرضها على محك التطبيق.

ولعل حرص النحاة على ترديد أمثلة سيبويه النحوية المصنوعة مع أنها ليست شواهد، ومع أنه ليس عربيا، وليس من أهل عصور الاحتجاج لم يكن لعوز في إدراكهم فلسفة سيبويه في المثال النحوي المصنوع، أو القصور عن الإتيان بما يحاكي مجتمعهم بطريقة دالة، وإنما لأن أمثلة سيبويه تتحلى بثقة النحاة أنها تحاكي كلام العرب في عصور الاحتجاج (نعجة، 2014، صفحة 262).

لقد تحققت غاية النحو قديما لأن "المتعلمين كانوا فارغين للعلم، منقطعين للحفظ والدرس، ملازمين أساتذتهم يفكون لهم طلاسم المغلق والمبهم، حياتهم هادئة محدودة قانعة حصرة على تعلم النحو تقربا إلى الله عز وجل، أما الآن فقد تركبت الحياة، وتعقدت وتغيرت قيمها ومنظومتها، وتنوعت العلوم والمعارف، وضعفت الهمم، وبات تعلم النحو حاجة المستكمل الذي تدفعه روح العصور إلى التجمل بألوان الثقافة العامة لا يليق بالمتحضر أن يجهلها ولا أن يجرد نفسه من قدر منها، ومثل هذا يحتاج إلى ترغيب، ومن خير وسائل الترغيب اللغة التي تكتب بها تلك العلوم (نعجة، 2014، صفحة 264).

5. تعليمية المثال النحوي بين الثبات والتغيير:

ارتبط النحو بالتعليم ارتباطا وثيقا على مدى العصور التي عرفت التأليف في النحو والتي تلتها. فقد كان تعليم النحو في مقدمة الأهداف التي يضعها النحاة نصب أعينهم لتحقيقها، ونتج عن ذلك نمطين من التأليف النحوي سارا معا، وتقبع دوافع كثير وراء ذلك من أهمها: (الخالدي، 2007، الصفحات 50-51)

- رغبة غير العرب في تعلم العربية بعد دخولهم في الإسلام.
- ظهور عدد كبير من مدارس الفقه والنحو والتفسير والحديث وغيرها من العلوم وحاجتهم إلى النحو.

- رغبة بعض الخلفاء في وضع كتب نحوية مبسطة للدارسين ولاسيما للمتعلمين المبتدئين منهم.
- محاولات تيسير النحو العربي خوفا على أصول اللغة العربية من الضياع.

ومن نماذج الدراسة المعاصرة لهذا الموضوع وتحليله ما كتبته الدكتورة سهى فتحي نعجة بقولها: "يشعر الطالب اليوم بغربة قيمية ثقافية اجتماعية حضارية فكرية شاسعة، ونمطية منفرة إزاء المثال النحوي المصنوع المتداول إثباتا لقاعدة أو نفيا لها مع واقعه المعيش، وهذه الغربة هي التي عمقت شكواه وتململه من النحو العربي، ونعته بالتخلف والجمود والتحجر مقارنة بنحو اللغات غير العربية، ذلك أن الغالبية العظمى ممن صنفوا كتبنا في النحو العربي أو درسوه ظلوا عالة على سيبويه يرددون أمثلته المصنوعة دونما وعي أو إدراك أنها إن حكت سياق مجمتعه فتفاعل أبناؤها معها فإنها لا تحكي السياق الحياتي لكل مجتمع في أي زمن" (نعجة، 2014، الصفحات 256-257).

فالأمثلة النحوية المصنوعة (هذا بسر أطيب منه رطبا) (سيبويه، 1991، صفحة 400/1).

و(أدخلت رأسي في القلنسوة) (سيبويه، 1991، صفحة 181/1)، و(لله درك صديقا) (السيوطي، 1980، صفحة 146/2).

في زمن الفضائيات والانفتاح اللغوي اللامحدود روفق بتصفيق حار لطغيان المعرب والدخيل والعامي المبتذل في كلامنا، وهل يرضى طالب اليوم عن المثال النحوي (أعجبني الجارية حسنها) (القرشي، 1986، صفحة 405/1)

ولما يعد للجواري حضوراً إلا في ذاكرته التاريخية المرهونة بظروف اجتماعية وسياسية خاصة مرت على الأمة الإسلامية في أوائل نشأتها؟

وهل يتقبل المثال النحوي (رجل خير من امرأة) (السيوطي، 1980، صفحة 30/2)، وأصوات المساواة بين الجنسين والسعي نحو صندرة المجتمع في علو دائم.

وهل يقنع بالضرب وسيلة تأديبية إصلاحية تربوية في المثال النحوي (ضربت ابني تأديبا) (سيبويه، 1991، صفحة 579/1)، و(ضربي العبد إذا كان مسيئا) (سيبويه، 1991، صفحة 254/1) في عصر ديمقراطي محاور محارب للعنف بشتى أشكاله؟

وهل يتفاعل مع المثال النحوي (آتيك إذا احمر البُسْرُ) (سيبويه، 1991، صفحة 60/2)، في زمن غاب فيه التقويم الزراعي، وحل محله التقويمان: الهجري والميلادي كلية؟ بل هي يتأتى له المدلول الزمني لاحمرار البسر، والبسر يحمر الآن في مناخات صناعية؟

وهل يتآلف مع المثال النحوي "صككت الحجرين أحد هي بالآخر) (سيبويه، 1991، صفحة 153/1) في عصر الكبريت والمقدح الغازي والكهربائي؟

وهل يروق له المثال النحوي (أئتني بدابة ولو حماراً) (سيبويه، 1991، صفحة 269/1) في عصر السيارة والطائرة والصاروخ؟

إن أمثال هذه المناقشات المضللة والتحليلات المجانية للصواب العلمي والتاريخي والقيمي التي غابت عن أذهان كثير من الدارسين والمهتمين المعاصرين بقضايا تيسير تعليم النحو انطلاقا من أمثله المصنوعة وشواهده التاريخية وعدم القدرة على امتلاك منهجية للتفريق بينهما فهماً وتوظيفاً وارتباطاً بفلسفة تسند هذه الأمثال والشواهد هو ما ساعد على ظهور مثل هذه الدراسات التي ظاهرها صواب وباطنها خلط وتشويش على ذهن المتلقي، وهذا ظاهر جلي في كلامها اللاحق عن علاقة الأمثلة النحوية بالحياة الاجتماعية في زمن سيبويه.

ومن يقرأ كتاب سيبويه يلحظ بوضوح حركة الحياة في زمانه بأبعادها المتنوعة في أمثلته النحوية: حضور الجارية والعبد والغلام في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع البصري المسلم/ عدد الجوري والغلمان والعبيد مؤثر اجتماعي واقتصادي دال على المكانة الاجتماعية، الأمثلة: (كم لك غلمانا؟) (سيبويه، 1991، صفحة 159/2) و(كم عبد عندك؟) (سيبويه، 1991، صفحة 282/2) و(عندي غلام وأتيت بجارية فارهين) (سيبويه، 1991، صفحة 80/2).

الضرب بعض الأساليب التربوية المتبعة في عصره من خلال الأمثلة (ضرب زيدُ عمر) و(السوط ضربت به) (سيبويه، 1991، صفحة 130/1)، و(ضرب زيد الرجل واليد) (سيبويه، 1991، صفحة 84/1) إشارة إلى أماكن الضرب.

يوم الجمعة مكانة خاصة في نفوس المسلمين، كما تدل أمثلة سيبويه (لا ضاربا يوم الجمعة) (سيبويه، 1991، صفحة 288/2) و(لا أحد في الدار يوم الجمعة) (سيبويه، 1991، صفحة 85/1).

خاص بالعبادات (يوم الجمعة صمته) (سيبويه، 1991، صفحة 85/1).

كما تشير أمثلة سيبويه إلى ملامح اجتماعية عامة تسود مجتمعه، فشرابهم المفضل (العسل)، وطعامهم الشهي (الثريد)، ولباسهم المتباهي به (جبة خز)، وعطر العبق (المسك)، وعملتهم الرائجة (الدرهم)، وأسماؤهم الشائعة للذكور (زيد وعمرو وعبد الله وخالد وبكر وحارث وعباس)، وللإناث (هند وزينب وفاطنة)، ووسيلة تنقلهم (الدابة)، وإشعالهم النار يكون (باصطكاك حجرين أحدهما بالآخر)، وصفاتهم المحمودة (الكرم)، وصفاتهم المذمومة (الحمق والبخل)، وأنكر الأصوات عندهم للرجال كصوت (الحمار)، وللنساء كنوح (الحمام) (نعجة، 2014، صفحة 261).

إن الربط بين آراء الدكتور سهى فتحي نعجة وتوجيهها الوجهة الصائبة في هذا الموضوع سهل بسيط.

فلقد أدرك الجاحظ أن الصعوبة لا تكمن في النحو نفسه، بقدر ما تكمن في طريقة تقديمه للتعلمين، فوجه رسالة لمعلمي النحو لا تخلو أساليب تربوية في تعليم النحو للناشئة، يقول: "أما النحو فلا تشغل قلب (الصبي) إلا بقدر ما يؤديه إلى العامة من ناحيتي اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبته، وشعرا إن أنشره، وشيء إن وضعه، وما زاد على ذلك مشغل عما هو أولى، ومذهل عن هو أرد عليه منه رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع...، ثم خذه بتعريف حجج الكتاب، وتخلصهم باللفظ السهل الغريب المأخذ إلى المعنى الغامض، وأذقه حلاوة الاختصار، وراحة الكفاية، وحذره التكلف، واستكراه العبارة، فإن أكرم ذلك ما كان إفهاما للسامع، ولا يحوج إلى التأويل والتعقيب، ويكون مقصوراً على معناه لا مقصراً عنه، ولا فاضلا عليه (الجاحظ، 1979، الصفحات 38/3-39).

وإذا كان من السائغ للنحوي أن يظل في فلك أمثلة سيبويه النحوية المصنوعة مثل (ضرب زيدُ عمراً) (سيبويه، 1991، صفحة 42/2) و(لا تأكل السمك وتشرب اللبن) (سيبويه، 1991، صفحة 269/2) و(كيف أنت وقصعة ثرية) (سيبويه،

1991، صفحة 58/2)، و(عندي غلام) وغيرها بوصفها تعكس خصائص المجتمع البصري في كثير من مناحي الحياة.

فإن من حق متعلمينا الآن في زمن الثورة العلمية والمعلوماتية أن تصنع لهم أمثلة ترتبط ببيئتهم التعليمية التربوية في تعلم النحو العربي، أمثلة متصلة بحياة المتعلمين اجتماعيا ونفسيا وتربويا واقتصاديا لخلق اللحن والترابط بين المتعلم والنحو العربي، ومن حقهم أيضا أن ينهلوا من معين القرآن الكريم الذي ارتبط وجود النحو العربي ونشأته وتطوره ارتباطا وثيقا به، ففيه ما يصلح لسانهم وعقولهم.

إن من يرى أن المثال المصنوع يبقى في علائقية نصية غالبا وحدود العصر الذي قيل فيه، على النقيض تماماً من الشاهد الذي تفصلنا عنه قرون وقرون، إن زمانية أو مكانية أو لغوية أو قيمية حتى إن تعاطيه اليوم في الحجرة الصفية أو في الكتاب التعليمي بعامة والمدرسي بخاصة كممتطي الدابة في زمن السيارة والطائرة أو كمرتدي العمامة في زمن البدلة إن لم نحسن استعماله وتوظيفه، هي دعوات مضللة ظاهرها خير وباطنها غير ذلك، وإنها لتكاد تدعو إلى الفصل بين أصول النحو العربي وما يسمى بالنحو المعاصر الذي يمثل على جملة كان واسمها وخبرها، أو على جملة فعلية فعلها متعد، أو على خبر المبتدأ شبه جملة بأمثلة يدعى المتعلمون أنفسهم لصناعتها بتعابير ومفردات عصرهم، فتغدوا أمثلتهم والحالة هذه قرينة لفظية ومعنوية على مفرداته ومفردات عصرهم، كما سيظل الهدف التعليمي مقترنا بالدرس النحوي في كل مراحل تكونه، ويكفي دليلا على ذلك أن نعلم بأن جل أعلام النحو العربي كانوا شيوخا وأساتذة يمارسون مهنة التدريس والتلقين في المساجد والمدارس، وهذا ما بلور المظهر الغائي للبحث النحوي (بوعلي، 2011، صفحة 30).

4. خاتمة:

خلصت هذه المحاولة البحثية في شأن تيسير تعليمية النحو العربي انطلاقا من المثال النحوي وفلسفته بين القديم والحديث إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- حاجة النحو العربي إلى تقويم وتجديد وتيسير مستمر يُركز على جزئيات فيه لخصوصية التجربة العربية وخيطها الناظم للفكر العربي الإسلامي المتمثل في تكامل العلوم والمعارف ووحدة المرجع ووضوح المقاصد.

- إتباع طرق فعالة في استنباط القواعد النحوية توائم بين القاعدة النحوية والسياق الاجتماعي العام للمتعلم من خلال أمثلة حية تحقق التوأمة بين صقل وجدان الدارس وزيادة خبرته وتقريبه من لغة الحياة المعاصرة وما تعبر عنه من ثقافة وتجارب.
- كل معالجة تيسير للنحو العربي تبدأ من مدخل تربوي تحدد فيه مقومات العملية التربوية لتلامس أحاسيسه ومشاعره الدينية والوطنية والعاطفية والأخلاقية، وتنتهي بالتعليم اللغوي.
- تشير أغلب روايات نشأة النحو العربي إلى ارتباطه بمحاربة اللحن أو فهم النص القرآني، وأن الفكرة النحوية كانت أسيرة الفكرة العقدية، تحمل هواجسها وتتبنى أسئلتها.
- الدعوة إلى تيسير النحو على المعلمين والمتعلمين بربطه بالنص القرآني، لأنه الأصل الذي ينبغي أن يبنى عليه النحو.
- ضرورة وسم المثال النحوي المقدم للمتعلمين بالسهولة والإيجاز، وتمثيل الحكم النحوي بتراكيب فصيحة معاصرة مستمدة من حياتنا اليومية، ولا تتعارض مع القياس النحوي، وتوظيف التمثيلات القديمة في مستويات تعليمية متقدمة.
- تجديد التطبيقات النحوية المعاصرة المرافقة للدرس النحوي لتدخل إلى عقول الناشئة من عصرهم لا من عصر غيرهم، مع رفدها بالشواهد القرآنية الواضحة والشعر القديم الملائم للمستوى التعليمي.
- استثمار الأمثلة والشواهد القديمة بعد تمكين المتعلم من القواعد النحوية في الاتصال بتراثه والعمل بمثله العليا وقيمه الفضلى التي ترقى بالإنسان.
- يعد النحو العربي من أهم العلوم الإسلامية ذات الأسبقية في استكشاف أسرار العربية ومعالجة النصوص الشرعية لتوظيفها في الواقع العملي، فهو أصل العلوم كلها وأساس معالجة لغة القرآن الكريم.

5. قائمة المراجع:

- ابن جني، أبو الفتح عثمان (2006)، الخصائص، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (2000)، المقدمة، دار صادر، لبنان.
- أبو المكارم، علي (2007)، المدخل إلى دراسة النحو العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- أمين، عبد الغني أيمن (2002)، النحو الكافي، دار ابن خلدون، القاهرة.
- بديع، إيميل (1996)، المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- بلعيد، صالح (2005)، الاحتجاج اللغوي، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، المجلد (01)، العدد (01).
- بوعلي، فؤاد (2011)، الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي العربي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن.
- تمام، حسان (2000)، الأصول، دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة.
- تمام، حسان (2006)، مقالات في اللغة، عالم الكتب، القاهرة.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (1979)، رسائل الجاحظ، دار المعارف، بيروت.
- الجارم، علي ومصطفى، أمين (1983)، النحو الواضح في قواعد اللغة العربية، دار المعارف، مصر.
- الحاج صالح، عبد الرحمن (2008)، أدوات البحث العلمي في علم المصطلح الحديث، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، المجلد (04)، العدد (01).
- الحجازي، عارف (2001)، قواعد اللغة العربية، شرح شامل مع أمثلة، دار الشروق، لبنان.
- الخالدي، كريم حسين ناصح (2007)، مناهج التأليف النحوي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان.
- رمضان، عبد التواب (1999)، فصول في فقه اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- السامرائي، إبراهيم عبود (2007)، المفيد في المدارس النحوية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، الأردن.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (1991)، الكتاب، دار الجيل، بيروت.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (1980)، همع الهوامع، دار البحوث العلمية، الكويت.
- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي (1997)، الموافقات، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية.

- ضيف، شوقي (1983)، المدارس النحوية، دار المعارف، مصر.
- علامة، طلال (1992)، نشأة النحو العربي في مدينتي البصرة والكوفة، دار الفكر اللبناني، لبنان.
- فرج، حسين علي (2000)، النحو الميسر وتدريبات على الإعراب، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، ليبيا.
- قاسم، محمد (2002)، القواعد الجامعة، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان.
- القرشي، ابن أبي الربيع عبيد الله أحمد (1980)، البسيط في شرح الجمل، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- مرتاض، عبد الجليل (2009)، الفسيح في ميلاد اللسانيات العربية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
- مكرم، عبد العال سالم (1993)، الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- مكرم، عبد العال سالم (2001)، من الدراسات الإسلامية، عالم الكتب، القاهرة.
- نعجة، سهى فتحي (2014)، آفاق الدرس اللغوي في العربية المبنى والمعنى، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن.
- هيئة التحرير (2005)، اللغة العربية إلى أين؟، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، المجلد (01)، العدد (02).
- الياسري، علي مزهر محمد (2003)، الفكر النحوي عند العرب أصوله ومناهجه، الدار العربية للموسوعات، لبنان.